في برشلونة.. عادوا الى الشوارع

في مطلع هذا الشهر كانوا سبعين الفا في شوارع برشلونة ، وكان كثيرون سواهم يصفقون لهم من الشبابيك . كانت تلك اول تظاهرة تشهدها المدينة بعد موت فرانكو ، وكانت اول تظاهرة كبرى يقوم بها اهالي المدينة منذ سنوات كثيرة . ايام فرانكو لم يكن التظاهر امينا لاسمه. فالناس يتظاهرون — حين تسنح الفرصة — دون ان يتظاهروا بذلك ، اي انهم يتظاهرون سرا . وكان طبيعيا ان لا تجمع التظاهرات عهد ذاك سوى ارتال قليلة من البشر .. وحين تتجاوز الامور هذا الحد تدخل الشرطة الى أي مكان ، منزلا كان ام مصنعا أم جامعة . وينمو عدد السجناء الذي كان نموه من اكثر الامور انتظاما في اسبانيا .

اما التظاهرات الكبرى فقد جعلها فرانكو حكرا على محترفي قمع التظاهرات . كان فرانكو سيدا في فن الاحتجاج على الاحتجاج . حين اعدم قبيل موته كوكبة من المناضلين « الباسك » ، نزل حزبه وجيشه وشرطته (السرية والعلنية) وطبقته بالطبع ، يحتجون على الاستنكار الاوروبي للاعدام . وكان دليلا على وصول الجريمة الى مستوى المطلق ان المجرم يحتج على وجود المحاكم اصلا .. يومها رأينا اثنين من رسامي الصحافة العالمية يصوران فرانكو — في يوم واحد ! — وهو يتفادى هرمه بالتوكؤ على مشنقته !..

وتظاهرت برشلونه للمرة الثانية منذ ايام . وذهل المراقبون ومراسلو وكالات الانباء ان هذه هي ثاني مظاهرة في شهر واحد . ذلك هو الحدث الفريد . ورغم قمع الشرطة للمظاهرة الاولى وللثانية ، يبدو ان المظاهرات لن تتوقف . فالناس يريدون الخروج من الكابوس ولهم مطالب مجمدة منذ سنوات طويلة ، والقوى الديمقراطية تتحفز وتوحد صفوفها وتعقد المؤتمرات . كل ذلك بايقاع سريع ، وكأن هذه القوى تريد ان تعوض ما فاتها من وقت .

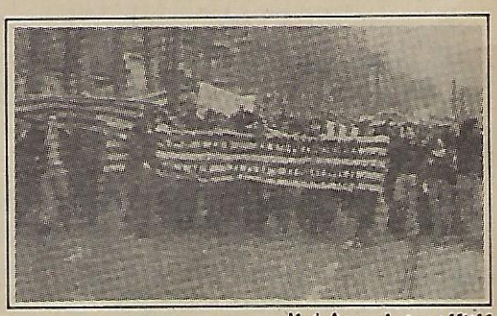

المتظاهرون في برشلونه

اليوم يتظاهر في اسبانيا جميع الذين كانوا يتظاهرون سرا ، في الماضي ، او لم يكونوا يتظاهرون على الاطلاق . وتفتح فوق التظاهرات شبابيك ، كان اصحابها يسارعون الى اغلاقها حين يجدونها مفتوحة صدفة ، ثم يقبعون في الزوايا . لم يعد التظاهر مبادرة الابطال .. صار بطولة الجماهير ..

لا يطلب هؤلاء شيئا لانفسهم .. بل هم يطلبون تعميم العفو على السجناء . ولما كان النظام القديم قد أصابه الوهن ، دون ان يتغير ، فأنهم يواجهون من جديد مطارق الشرطة ويقدمون مددا جديدا الى نزلاء السجون ! ما زال في السجون متسع اذن ، وما زالت عصي الشرطة على اهبة اسالة الدماء ؟ نعم ، لكن المتظاهرين الجدد يدركون ان شيئا ما قد تغير ، رغم ان العصي المنهالة ما تزال تحافظ على وقعها الرتيب .

ما الذي يشعر به اهالي برشلونة وهم يصغون للمرة الاولى الى وقع اقدامهم على أرض الشوارع ؟ قد لا يشعرون بشيء سوى وقع العصا على الرأس . لكن تظاهرهم يدل على أنه بات في وسعهم ان يضيقوا ذرعا بعصا صار عمرها اربعين سنة . والخطوة صغيرة الا انها هامة : لا يستطيع الاسبان ، بعد ، اتقاء الضربة ، لكنهم ، اليوم ، ينظرون الى الجلاد في عينيه ..